من مظاهر الإعجاز القرآنيّ (6)
بلاغة الفُروقِ اللَّفظيَّة في القُرآن الكريم

1- (الفُروق اللَّفظيَّة)؛ هي المسألة المقابلةُ لـ(قضيَّة التَّرادف)؛ والمترادف – على ما نَصَّ أهلُ اللُّغة –: «هو الألفاظ الدالة على شيء واحد باعتبارٍ واحدٍ»[1]. قال ابنُ فارسٍ رحمه الله (ت:395): «..ويسمى الشيء الواحد بالأَسماء المختلفة. نحو: السيف، والمهنّد، والحسام.

والذي نقوله فِي هَذَا: إن الاسم واحد؛ وهو "السيف" وَمَا بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة؛ منها فمعناها غير معنى الأخرى.

وَقَدْ خالف فِي ذَلِكَ قوم فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها فإنها ترجع إِلَى معنى واحد. وذلك قولنا: سيف، وعضب، وحُسام.

وقال آخرون: لَيْسَ منها اسم ولا صفة إِلاَّ ومعناه غيرُ معنى الآخر. قالوا: وكذلك الأفعال. نحو: مضى وذهب وانطلق. وقعد وجلس. ورقد ونام وهجع. قالوا: ففي "قعد" معنى لَيْسَ فِي "جلس" وكذلك القول فيما سواهُ.

وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

واحتجَّ أصحاب المقالة الأولى بأنه: لو كَانَ لكلِّ لفظة معنىً غير معنى الأُخرى؛ لما أمكن أن يُعَبَّرَ عن شيء بغير عبارته. وذلك أنّا نقول فِي (لا ريب فِيهِ): لا شك فِيه. فلو كَانَ "الرَّيْب" غير "الشَّكّ" لكانت العبارة عن معنى الرَّيب بالشك خطأ. فلما عُبّرَ عن هَذَا بهذا علم أن المعنى واحد.

قالوا: وإِنما يأتي الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد فِي مكان واحد تأكيداً ومبالغة. كقولهم: * وهندٌ أتى من دونها النَّأْيُ والبُعْدُ *

فقالوا: فـ(النأي) هو (البعد)، قالوا: وكذلك قول الآخر: إِن (الحبس) هو (الأَصْرُ).

ونحن نقول: إِن فِي (قعد) معنىً ليس فِي (جلس). ألا ترى أَنَّا نقول "قام ثُمَّ قعد"، و"أَخَذَهُ المقِيمُ المقْعِدُ"، و"قَعَدَتِ المرأة عن الحيض". ونقول لناس من الخوارج "قَعَدٌ". ثُمَّ نقول: "كَانَ

[1] السيوطي، المزهر في علوم اللغة، ج1، ص316.

مضطجعاً فجلس"؛ فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس؛ لأن "الجَلْسَ: المرتفع"، فالجلوس ارتفاع عما هو دونه. وَعَلَى هَذَا يجري الباب كلُّه.

وأما قولهم: إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يُعَبَّر عن الشيء بالشيء. فإنا نقول: إنّما عُبّر عنه من طريق المشاكلة، ولسنا نقول إن اللفظتين مختلفتان، فيلزمنا مَا قالوه. وإنما نقول إن فِي كلّ واحدة منهما معنىً لَيْسَ فِي الأخرى»[1].

وفي هذا النص لابن فارسٍ رحمه الله إشارةً إلى أمرين مهمين:

الأول: أن قضية الترادف مسألة اختلف فيها أهل العلم منذ القديم؛ فمنهم من أثبتها وجعلها مظهرًا من مظاهر الثراء اللفظي في اللُّغة العربية. ومنهم من أنكرها (ومنهم ابن فارسٍ نفسه).

الآخر: المساجلة العلمية القيِّمة التي عرضَ فيها ابنُ فارسٍ رحمه الله حجج القائلين بالترادف، والردَّ عليها[2].

2- والنظر في الاستعمالات القرآنيَّة للألفاظ التي يبدو بينها تقاربٌ في المعنى، يهدي في مُجمله إلى نُصرة القول القاضي بأنَّ هناك فروقًا دلاليَّةً بين الألفاظ الَّتي يُدَّعى فيها التَّرادف، ومن الأمثلة التي تُقرِّبُ هذه القضيَّة:

أ- الرُّؤيَا والحُلُم:

الحلم في كتب اللغة هو: ما يراه النائم، أو رؤية الشيء في المنام[3]. والرؤيا بمعناه أيضًا[4]. ولكنَّهما في الاِستعمال القرآني على غير هذا السَّنن.

---

[1] ابن فارس، الصاحبي، ص59-60.

[2] من طريف ما يروى في هذا «أن الرشيد سأل [الأصمعي] عن شعر لابن حزام العُكْلِيّ ففسره، فقال: "يَا أصمعي، إن الغريب عندك لغَيْرُ غريب" فقال: "يَا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك وَقَدْ حفظتُ للحَجَر سبعين اسماً"». الصاحبي، ص22. ومعنى ذلك أنَّ الأصمعي رحمه الله من القائلين بالترادف. وعلى النقيض من ذلك أبو علي الفارسي رحمه الله؛ إذ يقول: «كنتُ بمجلس سيف الدولة بحلَب، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة، وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه: أحفظ للسيفِ خمسين اسما. فتبسم أبو علي وقال: ما أحفظ له إلا اسما واحدا، وهو السيف. قال ابن خالويه: فأين المهَنَّد والصَّارِم وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات، وكأن الشيخ لا يفرقُ بين الاسْمِ والصِّفة». المزهر، ج1، ص318.

[3] يُنظر: الجوهري، الصحاح، ج5، ص1904. و: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص93.

[4] ينظر: الجوهري، الصحاح، ج6، ص2349.

– فإنَّ لفظ (الأحلام) ورد في القرآن الكريم ثلاث مرَّاتٍ، وُصفت في مرَّتين منها بـ(الأضغاث)، «مِنْ (ضَغَثَ الحديثَ) إِذَا خَلَطَه [...]. وَمِنْهُ قِيلَ للأَحْلام المُلْتبِسة أَضْغَاث»[1]. كما أنها لم ترد في القرآن إلاَّ بصيغة الجمع؛ دلالةً على أنها هواجس مختلطةٌ، لا يتميز أحدها من الآخر. قال تعالى: ﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ**﴾[الأنبياء:5]. وقال سبحانه: ﴿**قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ**﴾[يوسف:44].

– أمَّا لفظ (الرُّؤيا)؛ فإنها وردت سبع مرَّات كلُّها في الرؤيا الصَّادقة، ولم ترد في القرآن إلا بصيغة الإفراد؛ دلالة على التميُّز والوضوح والصفاء. ومن مواضعها: قوله ﷻ: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[الفتح:27]، وقوله ﷺ: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾[الصافات:104-105]، وقوله سبحانه: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**﴾[يوسف:100][2].

وحاصلُ ذلك أنه وإنْ كان لفظا (الحلم والرؤيا) مترادفين عند أهل اللغة؛ فإنهما متباينان في الإستعمال القرآني؛ إذ (الحلم) هو ما كان مختلطًا غير متميز، بدليل أنه لم يرد إلا بلفظ الجمع، و(الرؤيا) هي الصادقة الصافية المتميزة، بدليل أنها لم ترد إلا بالإفراد.

ب– النَّأيُ والبُعدُ:

النأيُ والبُعدُ في المعاجم اللغويَّة بمعنًى واحدٍ؛ إذ ممَّا نجد في (الصحاح): «(نأى): نَأيْتُهُ ونَأيْتُ عنه نَأياً بمعنى، أي بعدت. وأنْأَيْتُهُ فانْتَأَى، أي أبعدته فبعُد. وتَناءَوا، أي تباعدوا. والمِنْتَأَى: الموضع البعيد»[3].

وإن كان بعضُ أهل اللغة ممَّن يُنكرون التَّرادف قد فرَّق بينهما[4].

---

[1] ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج3، ص90.

[2] يُنظر: عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص215-216.

[3] الجوهري، الصحاح، ج6، ص2499.

[4] ومن ذلك قول أبي هلال العسكريِّ ينقلُ قول المبرد رحمهما الله: «وكذلك قَول الحطيئة (من الطَّوِيل):

أَلا حبذا هِنْد وَأَرْض بهَا هِنْد * وَهِنْد أَتَى من دونهَا النأي والبعد

فإذا اختبرنا هذين اللفظين في الاستعمال القرآنيّ وجدنا أنَّهما لا يترادفان.

– فـ(النَّأْيُ) في القُرآن الكريم، إنما يأتي بمعنى الإعراض والصَّدِّ والإشاحة؛ ومن جملة ما ورد منه: قوله ﷻ:﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ**﴾[الإسراء:83. فصلت:51]، وقوله ﷻ: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾[الأنعام:25-26]. أي أنَّ (النَّأيَ) يتعلَّقُ بأمرٍ معنويٍّ من أفعال القلوب؛ هو الإعراضُ والصَّدُّ.

– وأمَّا (البُعد) فإنه يأتي في الاستعمال القرآنيّ دالاً على البعد المكانيّ أو الزَّمانيّ؛ سواء كان مادِّيًّا أو معنويًّا. ومن موارده:

قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**﴾[التوبة:42]، وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾[الأنبياء:101]، وقوله ﷻ: ﴿**إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾[الفرقان:12]. وهذه في البعد المكاني.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ**﴾[الأنبياء:109]، وقوله ﷻ: ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا**﴾[المعارج:6-7]. وهذه في البعد الزماني.

ومنها قوله ﷻ: ﴿**أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**﴾[هود:95]، وقوله سبحانه: ﴿**وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[هود:44]. وهذه في بعد اللعنة والطرد.

والحاصل أنَّ (البعد) في الاستعمال القرآنيّ نقيض (القرب) سواء في ذلك المكاني والزماني، وسواء المادي والمعنوي، وأمَّا (النأي) فإنه بمعنى (الإعراض) الذي هو نقيض (الإقبال)[1].

جـ– حَلَفَ وأقسَم:

يفسر كثير من المعجميين كلا الفعلين بالآخر، ومن ذلك ما نجده في (تاج العروس): «(وتَقَاسَمَا: تَحَالَفَا) من القَسَم، وهُوَ اليَمِين، وَمِنْه قَولُه تَعالى: (قَالُوا تقاسموا بِاللَّه) [...]وَمِنْه قَولُه

وَذَلِكَ أَن النأي يكون لما ذهب عَنْك إِلَى حَيْثُ بلغ، وَأدنى ذَلِك يُقَال لَهُ نأي، والبعد تَحْقِيق التَّرَوُّح والذهاب إِلَى الْموضع السحيق، وَالتَّقْدِير: أَتَى من دونَهَا النأي الَّذِي يكون أول الْبعد، والبعد الَّذِي يكَاد يبلغ الْغَايَة». الفروق اللغوية، ص23.

[1] يُنظر: بنت الشاطئ، الإعجاز البياني، ص218-220.

تَعالَى: (كَمَا أنزلنَا على المقتسمين)، قَالَ ابنُ عَرَفَةَ: هم الَّذين تَقَاسَمُوا وتَحَالَفُوا عَلَى كَيْدِ الرَّسُولِ ﷺ»[1]. ولكنَّا إذا احتكمنا إلى الاستعمال القرآنيّ للفعلين؛ وجدنا بينهما فرقًا.

– إذ وردت مادة (ح ل ف) في ثلاثة عشر موضعا في القرآن الكريم، كلها في الحنث باليمين (الأيمان الكاذبة)؛ وجلُّها مما أُسنِدَ الفعل فيه للمنافقين، من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**﴾[التوبة:56]، وقوله تعالى: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ**﴾[التوبة:74]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾[النساء:61-63]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**﴾[القلم:10-12].

وجاء مرة واحدة مُسندا للذين آمنوا فوجب عليهم كفارة الحلِف؛ وذلك قوله ﷻ: ﴿**ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ**﴾[المائدة:89].

– وأمَّا (القسم)؛ فإنه يأتي في الأيمان الصَّادقة؛ حقيقة (موافقة للواقع)، أو توهمًا (أي يتوهم صاحبها أنه محقٌّ فيها، وإن كان مبطلا في نفس الأمر). ومن ذلك قَسَمُ أصحاب الجنَّة: ﴿**إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ**﴾[القلم:17-18]. كما يُسنَدُ فعل القَسَم كثيرًا في القرآن الكريم إلى الكفار والضَّالين، توهُّمًا منهم للصِّدق في أقسامهم، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾[الأنعام:109]، قوله ﷻ: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[النحل:38]، وقوله ﷻ: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا**﴾[فاطر:42][2].

---

[1] الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج33، ص269.

[2] يُنظر: بنت الشاطئ، الإعجاز البياني، ص221-224.

د– زوج وامرأة:

قد يبدو لأول وهلة أن التعبير بـ(امرأة) الرجل أو (زوجه) سيان في المعنى؛ فلنا مثلاً أن نقول: زوج آدم، وامرأة آدم. ولنا أن نقول: امرأة العزيز، وزوج العزيز. ولكنَّ ذلك غيرُ وارد في الإستعمال القرآنيِّ لهتين الكلمتين.

لأنَّ معنى (الزوج) يقوم على الاقتران القائم على التماثل والتشابه والتكامل، وآيته وعلامته السكينة والمودَّة والرحمة التي تكون بين الزوجين. قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الروم:21].

– وبهذا الإعتبار جعل رب العزة والجلال، حواءَ زوجًا لآدم ﷺ في قوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾[البقرة:35].

وهكذا نساء النبي ﷺ هن أزواجه بهذا الاعتبار كذلك. قال ﷻ: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾[الأحزاب:6][1].

– فإذا تعطلت آية الزوجية من السكن والمودة والرحمة، بخيانة أو تباين في العقيدة، فالأنثى هنا (امرأة) لا (زوج). ومن ذلك في الاستعمال القرآني، قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[يوسف:30]، وقوله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[التحريم:10].

ومن لطيف ما يُشارُ إليه في هذا المقام، أنَّ زكرياء ﷺ أطلق على زوجته (امرأتي) مع أنها ليست كافرةً، وما ذلك — والله أعلم –، إلاَّ لأن حكمة الزوجية في البشر تعطلت، إذ كانت امرأته عاقرًا، وطلب الولد من مقاصد الزواج، فلما لم يكن منها ولد؛ كانت في الاستعمال القرآني (امرأة). قال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾[آل عمران:40]، وقال سبحانه: ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**﴾[مريم:5].

---

[1] يُنظر: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص213–214.

ثم لما استجاب رب العزة والجلال له، وحققت الزوجية حكمتها في تحصيل الولد، وأنجبت له يحيى عليه السلام، صارت (زوجًا) لا (امرأة). قال تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**﴾[الأنبياء:90].